وزارة الثقافة

صور أوروبية

تأليف: نقولا زيادة

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

صُوَر أوروبيَّة

تأليف: نقولا زيادة

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٧
عن المطبعة التجارية في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: نقولا زيادة
اسم الكتاب: صور أوروبية
الطبعة الأولى: ١٩٤٧ عن المطبعة التِّجاريَّة في القدس

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
لوحة الغلاف للفنانة: زلفة السعدي

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

صُوَر أوروبيَّة

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

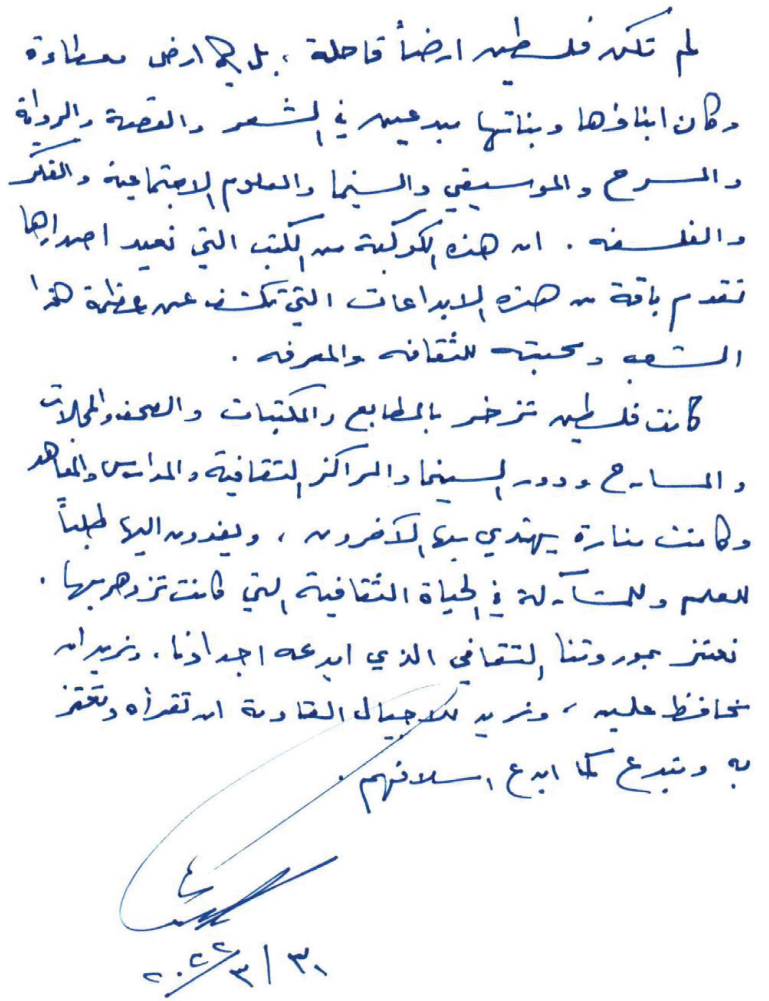

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارضاً معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه المكتبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفدون اليها طلباً للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان نحافظ عليه، ونريد للاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠/٣/٢٠٢٠

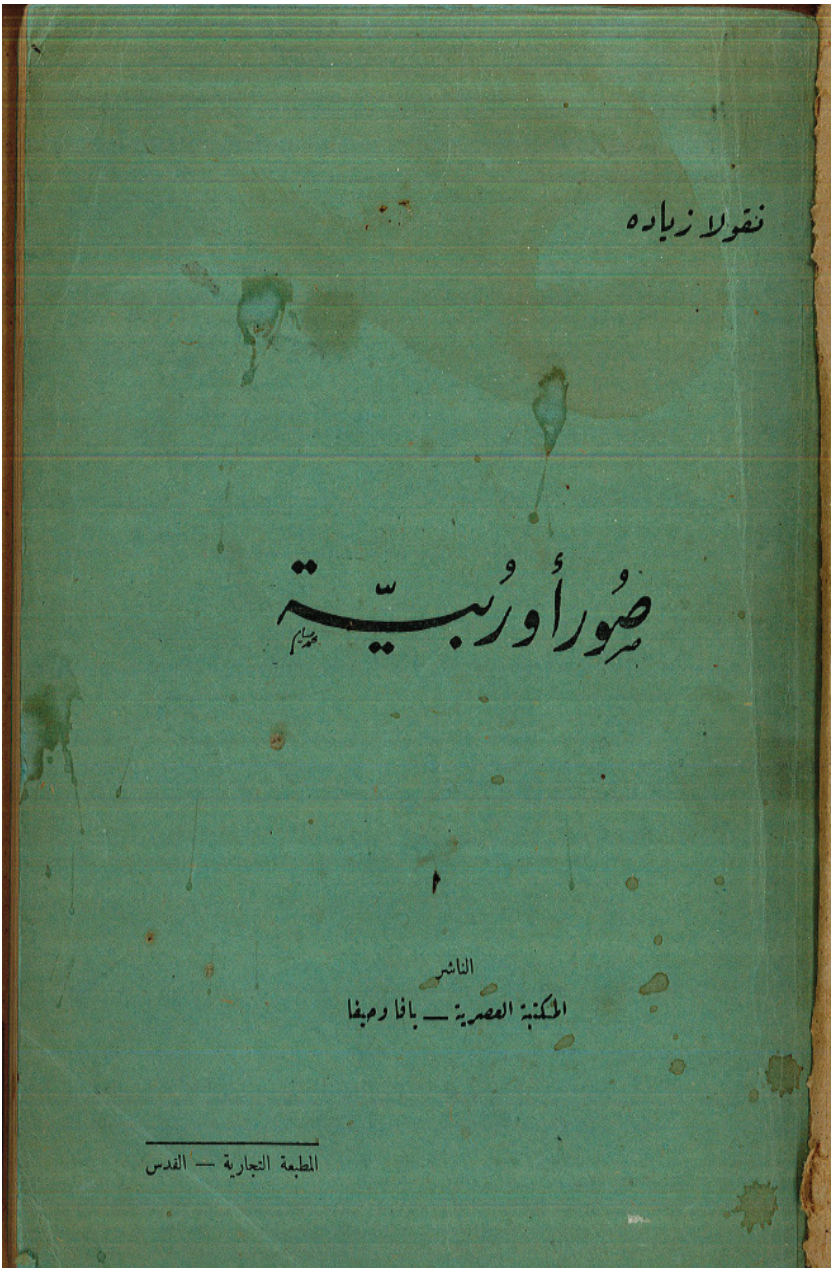

الغلاف الأصلي للكتاب

تقدمة الكتاب

تمتدّ العصور الوسطى ألف سنة تقريبًا، من سقوط رومة إلى سقوط القسطنطينية، وفي هذه الفترة ظهر الإسلام واحتلَّ القرب الأقطار المجاورة، واكتسحوا البلاد البعيدة، ونمت حضارتهم وانتشرت لغتُهم وآدابهم ودينهم.

وفي النّصف الأوَّل من العصور الوسطى، انتشرت الفوضى في أوروبا، وعمّ الاضطراب أجزاءها، لكن في نصفها الثَّاني، بدأ تنظيم الحكومات وقيام الدّول. ومن أهمّ حوادث العصور الوسطى الحروب الصَّليبيَّة التي كانت أكبر صدام بين الشَّرق والغرب.

على أنَّ العصور الوسطى لم تكن فترة حروب فقط، بل كانت فيها تجارة، ومدن، واتّصالات بين الشَّرق والغرب، فأدَّى ذلك كلّه إلى مزج الحضارات والثَّقافات، ونتج من ذلك كلِّه النَّهضة الأوروبيَّة بنواحيها المختلفة: فكان ثمَّة النَّهضة الفنيَّة والإصلاح الدّينيّ والاكتشافات الجغرافيَّة، وإحياء الآداب وتقدُّم العلوم.

وقد كان من المألوف أن توصف العصور الوسطى بالجمود والظَّلام والتَّخريب والتَّدمير، ولكنَّ المؤرخين الآن يعرفون أنَّها لم تكن كلّها

كذلـك. إنَّهـم يـرون أن فـترة التَّدمـير كانـت قصـيرة الأمـد، ثـمَّ جـاء بعدهـا دور الإنشـاء والعمـران، والفصـول التَّاليـة توضِّـح لنـا صحَّـة هـذه القضيَّـة.

مع الفلَّاح

كانت الزراعة هي المورد الرئيسي المعيشة في الجزء الأكبر من أوروبا في العصور الوسطى، خصوصا إلى القرن الثاني عشر، لما بدأت التجارة والصناعة تحتل مكانها كمورد للرزق. ومن ثمة كانت مدنية تلك العصور مدنية زراعية، وكانت الوحدة الزراعية أساس الحياة، سواء أكانت هذه الوحدة قرية أو مزرعة كبيرة أو أرضا للنبيل تتوسطها قلعته، أو ملكا للدير أو الملك. وكانت هذه الوحدة تتألف من مساكن الفلاحين التي تحيط بقصر صاحب الأرض، والأرض نفسها.

في القرن التاسع الميلادي كانت أملاك دير القديس جرمين في فرنسا تتكون من بيت كبير يقيم فيه الرهبان وتحيط به بيوت خشبية يقطنها الفلاحون، وأبنية أخرى تشمل المنزل والمنسج والفرن والبوايك والاسطبلات والمنجرة والمعصرة والمحددة والمخازن وغيرها، وكل هذه يدور بها سور من الأشجار يفصلها عن الأراضي الواسعة الممتدة حولها إلى مسافات بعيدة. وهذه الأرض كانت على أنواع؛ منها المفتلح ومنها المرعى ومنها الكروم والبساتين ومنها الغابات والأحراش، وعندنا إحصاء عن القرية الإنجليزيَّة في القرن الثالث عشر، فقد كان معدل سكانها نحو أربعمئة نسمة، منهم مئتان وخمسون من الرجال والنساء والباقي من الصغار.

وسكان هذه الوحدة الإقطاعية كانوا مرتبطين بالأرض التي أقاموا فيها. وكانوا ثلاثة أنواع: فهناك عبيد يباعون بيع الرقيق، وثمة «أقنان الارض» وهم الذين كانوا أحرارا في أجسامهم، لكنهم لا يستطيعون مع ذلك أن ينفصلوا عن الأرض، فإذا انتقلت ملكيتها من مالك إلى آخر

ظلوا في أرضهم ولا يجوز لهم تركها والانتقال إلى مكان آخر. والأحرار الذين لم تكن تربطهم بالأرض رابطة.

وعلى مر السنين كان عدد العبيد يتناقص وعدد الأحرار يتزايد، لكن نوع العمل الذي كان يقوم به السكان فيها كان يختلف في الطبقة الواحدة عنه في الطبقة الأخرى. حرائة الأرض ورعي الماشية وتربية الطيور وحراسة المزروعات وحصد الغلال وجمعها وطحن الحبوب وقطف الأثمار وعصر الخمور: كل أولئك كانت عمل الفلاح. بينما كانت زوجه تغزل الخيوط وتحيك الثياب وترفو ما تمزق منها، وتشاركه في صنع الزبدة والجين. وكانت كل قرية أو وحدة زراعية لها حدادها ونجارها وبيطارها وبقية الصناع اللازمين لصنع الأدوات وإصلاحها.

تحدثنا الرواية التاريخية التي وصلتنا من أيام شارلمان أن (بودو)، وهو فلاح كان يعيش في أرض تابعة لدير القديس جرمين السالف الذكر، كانت له قطعة أرض يعيش هو وعائلته من زرعها. والأجر الذي كان بودو يدفعه عن هذه الأرض كان يتألف من العمل ثلاثة أيام في الأسبوع في أرض الدير الأصلية، ومن المساعدة في كل ما يتطلبه منه وكيل الدير. لكنه كان يدفع بالإضافة إلى ذلك (شلنين من الفضة) بدل الخدمة العسكرية، ونحو ثلاثين ملا عن كل فرد من أفراد أسرته كضريبة. وكان عليه أن يحمل إلى الدير في كل سنة بعض الحطب وشيئا من الخمر وخروفا وثلاث دجاجات وخمس عشرة بيضة وخنزيرين وشيئا من الحبوب والعسل والشمع والصابون أو الزيت. أما الصناع فيتحتم عليهم أن يصلحوا ما يتلف من البناء، ويصنعوا الحراب والعربات

والبراميل. وتقدم الزوج خيوطا مغزولة وقماشا، وتصنع أردية للوكيل.

والعمل في أرض القرية كان مشتركا إلى حد كبير. حصص الأفراد من أرض القرية كانت متفرقة؛ لينال كل منهم نصيبا في كل نوع من أنواع الأرض، فكانت حراثة الأرض وجمع الغلال وخزنها وحراسة المزروعات عملا يساهم فيه الجميع ويقتسمون ثماره.

ولم يكن العمل سهلا، فقد وصل إلينا غير وصف واحد لحراثة الحقول في أيام البرد الشديد والأرض يكسوها الصقيع، والرياح تضرب وجه الفلاح ووجه ابنه الذي يساعده. ولم تكن ثيابه تقيه البرد أو المطر، فكساؤه الخشن مخترق، وحذاؤه تنفذ منه الأصابع، وطاقيته ممزقة، وزوجه حافية تسيل الدماء من قدميها على الثلج وهي تسير إلى جانبه تساعده. وشعر العصور الوسطى الإنجليزيّ غني بصور حياة الفلاحين.

ولم يكن وكيل الأرض يرأف بالحراث أو الحصاد، فإذا تأخر عن عمله عاقبه، فهذا فلاح يقول عن نفسه «علي أن أذهب مع الفجر جارا ثوري إلى الحقل غير عابئ بالبرد أو المطر؛ لأنني أخشى السيد الوكيل. يجب أن أحرث في اليوم الواحد فدانا أو أكثر ... ابني الصغير يساعدني ... وها قد أثر فيه البرد فأصبح صوته أجش ... إنه عمل شاق يا سيدي ... ليتني كنت راهبا أو تاجرا أو صانعًا أو أي شيء آخر... ولكنني فلاح».

هذه الحياة الأوربية التي كانت القرية وحدتها الاقتصادية، كانت

القريــة وحدتهــا الاجتماعيــة أيضــا، وكان طابعهــا الرئيــسي العزلــة. فــما أقــل مــا كان يدخــل القريــة غريــب، خصوصــا إذا كانــت بعيــدة عــن المــدن القليلــة التــي كانــت في أوروبــا. ومــن ثــم كانــت الجماعــة محــدودة في تفكيرهــا وحياتهــا الروحيــة، ومــا أكــثر مــا كانــت تأســن. كانــت الكنيســة وكاهنهــا مصــدر حياتهــا الروحيــة، وألحانــه منتداهــا الاجتماعــي، والرقــص ســلوة أهلهــا، والعرافــة موحــى نســائها، والدجــال طبيبهــا. فالمريــض، إنســانا كان أم حيوانــا، تشــفيه رقيــة ورثهــا الســكان عــن آبائهــم الوثنيــين، فلــما تنــصر الأبنــاء أضافــوا إليهــا (لتكــن مشــيئة الــرب). وهــذا بــودو يذهــب ليبــدأ عمــل الموســم الجديــد في حقلــه، فيضــع في أول مــر يحرثــه كعكــة صنعتهــا زوجــه مــن خليــط مــن أنــواع الدقيــق، ثــم يتلــو عليهــا تعويــذة يرجــو مــن ورائهــا الخصــب والنبــت المثقــل بالثمــر.

وفي الحانــة كان الــكل يجتمعــون كان غاوتــون في طريقــه إلى بعــض عملــه، لكــن بتــون يدعــوه إلى الحانــة، فيلبــي دعوتــه ويدخــل ويشــجعه عــلى ذلــك أنــه يحمــل في كيســه فلفــلا وطبيبــا وثومــا، وهــي أشــياء نــادرة، ولذلــك كانــت مرتفعــة الثمــن. وفي الحانــة يــرى الحــذاء وحــارس الصيــد وبائــع الإبــر والحبــال وبائــع الصحــون والأثــاث والإســكاف. ويــشرب الجميــع ويتراهنــون.

وكان الرقــص ســلوة الجماعــة. ومــا أكــثر مــا كان القــوم يرقصــون في ســاحة الكنيســة، في أيــام الآحــاد والأعيــاد المقدســة وليلــة عيــد الميــلاد. ومــع أن ذلــك كان ممنوعــا فــإن القــوم لم يرتدعــوا. ولعــل مــن أطــرف الأســاطير التــي جاءتنــا عــن ذلــك أن جماعــة مــن الســكان رقصــوا في ســاحة الكنيســة ليلــة عيــد الميــلاد، مــع أن الكاهــن نهاهــم عــن ذلــك، فتســمروا في أماكنهــم وظلــوا

راقصين شهورا طويلة حتى بريت الأرض تحت أقدامهم وانطمروا فيها إلى وسطهم وحتى حلهم أسقف كولون من هذا العقاب.

وعلى قلة الزوار للقرية التي نتحدث عنها، فقد كان يأتيها بين آن وآخر شعراء ينشدون السكان قصائد من أنباء الغابرين من الأبطال. وكان يهبط القرية قضاة يفصلون في الخصومات التي تنشأ عن المشاجرات والألعاب والاختلاف على قسمة المحاصيل. وهؤلاء كانوا يهبطون القرية مرة في العام. فقد استن شارلمان لإمبراطوريته أن يتجول فيها (رسله) يقضون بين الناس. وكان ذلك معروفا في إنجلترا في القرون الوسطى أيضا، وزيارة هؤلاء القضاة كانت تقتضي جهدا خاصا في ترتيب المكان وتهيئة المتخاصمين وتحضير الهدايا لرشوة القضاة. وهذا أحد القضاة في أيام شارلمان يقول «إنهم يحاولون بهذه الهدايا أن يؤثروا في نفسي ... ولولا أنهم تمكنوا من اللعب بقضاة قبلي لما فكروا بمثل هذا العمل نحوي ... ولكنني لم أرد أن أوذي شعور الناس فقبلت أشياء تافهة، كبعض البيض والخبز والخير والطيور الصغيرة ... آه ما الذ طعم هذه الطيور».

وقد نال بودو في حياته شيئا كان حدوثه امرأ نادرا. ذلك أنه حَظِيَ برؤية شارلمان نفسه، لما زار الإمبراطور دير القديس جرمين في طريقه إلى باريس. ولكن كم من هؤلاء الناس أتاحت لهم ظروف الحياة أن يحظوا برؤية الملك؟

وثمة بعض القرى التي كانت تنعم بقضاء أيام مليئة باللهو والسرور

والمرح عندما تقام أسواق سنوية بمناسبة عيد أحد القديسين. ولا تزال بعض هذه الأسواق الموسمية موجودة في أماكن مختلفة من أنحاء العالم، ولا تزال إلى الآن تجلب السرور لعدد كبير من القرويين، وقد كانت من عادة بودو أن يصطحب زوجه وأولاده الى سوق القديس دينيس في كل عام، فيتنقلون بين الدكاكين والبسطات يتفرجون على المعروضات من الأقمشة والثياب وريش الطاووس واللآلئ والطيوب والبهارات واللوز والزبيب وهي الأشياء التي حملها التجار الشرقيون أو البنادق ليبيعوها لأغنياء الفرنجة وليحملوا عوضا عنها من منتوجات تلك البلاد. وما أكثر اللغات واللهجات التي كان بودو واصحابه يسمعونها في هذه السوق وأمثالها، وما أكثر أنواع الألعاب التي كان يعرضها المرتزقة في هذه المواسم. وكم طرب بودو وأحفاده من بعده لما سمعوا قصة التاجر الذي حشا فأرا بالطيوب وباعه إلى رجل كان معروفا عنه أنه يرغب في اقتناء كل شيء جديد، بكمية كبيرة من الفضة، على أساس ان الفأر الحشو كان شيئا خاصا بالأرض المقدسة، ولا يظهر إلا فيها.

مع المسافرين

يتصف النصف الثاني من العصور الوسطى بالنشاط في نواحي الحياة الأوربية المختلفة. فقد تنظمت الحكومات وقامت المدن وعادت إلى الصناعة بعض حيويتها القديمة. وكل هذا حمل السكان على التنقل والسفر، فتنقلوا لبيع ما صنعوا، واستبداله بغيره، وسافروا ليستطلعوا أخبار الأمم التي تعيش في جوارهم، ورحلوا في طلب العلم، وحجوا في سبيل الغفران والتوبة. فبدا من المسؤولين اعتناء بالطرق، البرية منها والبحرية، وبالمراكب من حيث توسيعها وبناؤها وتوفير بعض وسائل الراحة فيها. وهذه الأمور شجعت الكثيرين على الأسفار، فشملت الرحلات جميع طبقات السكان. على أننا ونحن نتحدث عن تيسير السفر في العصور الوسطى نود أن نذكر أنفسنا أن هذا الأمر كان شيئا نسبيا؛ لأنه ظلت هناك صعوبات كبيرة قائمة في سبيل الرحالين. وعلى كل فالصور التي حصل عليها هؤلاء المسافرين، برا وبحرا، فيها من المتعة واللذة ما يشفع لها.

كانت وسائل النقل البري الأقدام أو الحيوانات، أما المركبات فلم تدخل في حسبان المسافرين إلا في وقت متأخر؛ ولذلك لم تكن هناك طرق معبدة، والمحافظة على الطرق كان معناه أن يُرصَف الجزء الموحل منها، وتُقطَع الأشجار والأشواك النابتة فيها، وأن تُقام الجسور والعبارات على الأنهار والأودية، بحيث يستطيع المسافر اجتيازها. وكان هذا العمل من أعمال البر والخير. وما أكثر الجماعات التي أنشئت للقيام بهذه الأمور. وأشهرها «أُخُوَّة الجسور» التي بدأتها حماسة كاهن شاب، توهم أنه أوحي إليه أن يبني جسرا على الرون قرب أفنيون، وسرت

عـدوى حماسـته إلى غـيره، فتـم بنـاء الجـسر وأنشـئت الجمعيـة في أواخـر القـرن الثـاني عـشر. وهـذه الجماعـة، مثـل غيرهـا، كان أعضاؤهـا مـن رجـال الديـن ومـن العامـة. ومـن المتعـارف عليـه في الروايـة التاريخيـة الإنجليزيَّـة أن أول جـسر خشـبي في عـلى نهـر التايمـز أقامتـه جمعيـة دينيـة، وأن أول جـسر حجـري عـلى النهـر نفسـه بنـاه راهـب». عـلى أن حكومـات المـدن والـدول أخـذت تهتـم بأمـر الجسـور والطـرق شـيئا فشـيئا. ولمـا جـاءت المركبـات إلى الطـرق اهتـم اصحـاب الحـل والعقـد بـأن تكـون الطـرق في داخـل المـدن عريضـة، بحيـث تتسـع لمركبتـين في وقـت واحـد. ومـن أطـرف مـا وصلنـا أمـرٌ لهـنري الاول فـرض فيـه أن تكـون الطريـق خاليـة مـن العوائـق بحيـث تتسـع لسـتة عـشر جنديـا يركبـون جنبـا إلى جنـب. وبقـدر ازديـاد الفائـدة التـي كانـت تعـود عـلى المدينـة كانـت تتزايـد عنايتهـا بالطـرق. ولذلـك كانـت الطـرق المؤديـة إلى المـدن الايطاليـة ومـدن فلانـدرز، أي الأراضي المنخفضـة، خـيرا مـن غيرهـا.

أمـا أن الطـرق ظلـت أمـرا ثانويـا في كثـير مـن أصقـاع أوروبـا، فيبـدو مـن القصـة التاليـة التـي وصلـت إلينـا مـن القـرن الخامـس عـشر. كان بائـع قفـازات في طريقـه إلى إلزبـري (شـمالي لنـدن) قبيـل عيـد الميـلاد. وقـد حـدث في اليـوم السـابق لسـفر البائـع أن احتـاج صاحـب مطحنـة في إلزبـري إلى نـوع معـين مـن الصخـر لإصـلاح مطحنتـه، فأرسـل رجلـين اقتلعـا لـه مـا احتاجـه مـن هـذه الصخـور. فـترك ذلـك حفـرة كبـيرة في وسـط الطريـق العـام عمقهـا عـشر أقـدام وسـقط المطـر الغزيـر فملأهـا. فلـما مـر البائـع في الليـل لم يـر الحفـرة فسـقط فيهـا ومـات هـو وحصانـه غرقـا. فسـيق

صاحب المطحنة إلى المحاكمة، ولكن المحكمة برأته لأنها اقتنعت أنه لم يكن في المنطقة كلها مكان آخر توجد فيه الحجارة التي احتاجها، فهو أراد الخير لمطحنته ولم يتعمد قتل البائع، وهكذا سُمِح لصاحب المطحنة أن يتلف الطريق العام؛ لان الطريق كانت ذات قيمة ثانوية.

أما الطرق الريفية، أي التي كانت تلك بين قرية وأخرى، أو بين دير وقلعة، غير ما يصورها لنا قصة فتى بعثه رئيس الدير ليجلب عشبا من حقول القرية المجاورة. فحمل له الفلاحون العشب على حمار ساقه أمامه، وعاد أدراجه إلى الدير. وكان عليه أن يجتاز جزءا منخفضة من الدرب، وكانت هذه ضيقة إلى حد أن العشب بقي لاصقا بالجانبين، بينما سار الحمار وحده، ولم يتمكن الفتى من رؤياه، وأخذ يضرب العشب معتقدا أنه يضرب الحمار ليسير. وظل على ذلك حتى أتى رهبان الدير للتفتيش عنه.

وكانت الصعوبات والأخطار التي يتعرض لها المسافر كثيرة متنوعة. فهناك اللصوصية على اختلاف أشكالها، وهناك الضرائب «والخاوة» تدفع عند كل جسر أو ممر. وقد أحصى المؤرخون عشرات منها، ولعل أشهرها الضريبة الشخصية التي كان يدفعها المسافر نفسه، وتختلف باختلاف وسيلة النقل، والتعرفة الجمركية على المواشي والمأكولات وغيرها من المتاجر، وكانت هناك ضريبة خاصة بالخمور، يغلب عليها أن تُدفَع عينا إذا كانت الخمور من النوع الجيد. وكان المسافر في كثير من الأحيان يُجبَر على السير في طريق معين ليدفع ما يترتب عليه من الضرائب، وهذا هو المعروف عند المؤرخين باسم «الإرغام على اختيار

الطريـق». وكان مـن حـق السـيد أن يمتلـك كل مـا يسـقط مـن المتـاع في أرضـه؛ لذلـك كان يهمـل الطريـق، حتـى تضطـرب العربـات وتتسـاقط منهـا المتاجـر والاشـياء، فتصبـح ملـكا لـه.

أمـا اللصوصيـة فقـد كان بعضهـا مـن عمـل أفـراد ضاقـت بهـم الحـال فانصرفـوا إلى النهـب والسـلب ليعيشـوا. وكان نبـلاء الإقطـاع الذيـن فقـدوا أراضيهـم وثروتهـم في مقدمـة هـؤلاء اللصـوص، كالـذي وصلنـا مـن أن نبيلـين سـلبا تجـارا مـن البنادقـة بـآلات كثـيرة مـن القـماش، ثـم فاوضـا المدينـة نفسـها في أن يعيـدا المـال المسـلوب لقـاء شيء مـن النقـود يدفـع لهـم، عـلى ألا يقـل عـن نصـف ثمـن القـماش الأصـلي. وكان ثمـة نـوع آخـر مـن اللصوصيـة هـو أن يسـلب أهـل مدينـة مـا يحملـه أهـل المدينـة الأخـرى مـن المتاجـر، وهـو مـن قبيـل المنافسـة التجاريـة. وهـذا كان كثـير الحـدوث خاصـة في البحـر، إذ كانـت هـذه القرصنـة مشروعـة في نظـر المـدن الايطاليـة. لكـن شر أنـواع اللصوصيـة البريـة كان السـلب الفـردي. وكان كثـيرا إلى حـد أن فردريـك الأول سـمح لـكل تاجـر مسـافر أن يحمـل سـيفا ليدفـع العـدوان عـن نفسـه. وكانـت القاعـدة أن يسـير المـرء إلى يسـار الطريـق كي يتمكـن مـن اسـتعمال سـيفه بيمنـاه، إذا جانبـه لـص وحـاول أن يغـدر بـه. وأمـر هـنري الثـاني في إنجلـترا بوجـوب قطـع النباتـات البريـة إلى مسـافة مئتـي يـاردة عـلى جانبـي الطريـق العـام، حتـى لا يبقـى ثمـة مـكان يختبـئ فيـه اللصـوص. وكان مـما لجـأ إليـه أولـو الأمـر تدريجيـا لمقاومـة أعـمال الشـقاوة هـذه هـو الإكثـار مـن النـزل والمضافـات والخانـات في الطـرق، فأصبـح المسـافر يجـد مكانـا يـأوي إليـه ويضـع فيـه سـلعته فـلا

تتعرض لنهب الذاهب وسلب السالب.

وكانت أسفار البحر لها أخطارها الخاصة بها أيضا، فكانت السفن بادئ بدء صغيرة مضطرة أن تسير بالقرب من الشاطئ، ولم تتمكن من الابتعاد عنه، إلى أن وصلت البوصلة البحرية إلى أوروبا من العرب. ولما كبرت المراكب كان بعضها يتسع لنحو ألف من الركاب بما في ذلك البحارة. وقد كان عند البنادقة سفن تجارية تحمل نحو خمسمئة طن من البضائع. وبلغ طول السفينة التي ركبها لويس التاسع ملك فرنسا من البندقية مئة وثماني أقدام، وفيها مئة وعشرة من البحارة؛ أما سفن الشمال فقد ظلت أصغر حجما مدة طويلة، فالسفن المعاصرة ما كانت حمولتها من المتاجر أقل وزنا، ومن الرجال أصغر عددا.

كانت المياه الضحلة والشواطئ الصخرية شر ما تخشاه السفن بعد القرصان، الحر منه والرسمي. ولما كانت القاعدة أن السفينة التي تتحطم على شاطئ بلاد تصبح حمولتها ملكا لصاحب تلك البلاد، فكثيرا ما كان النبلاء يوقدون مصابيح بالقرب من الصخور الناتئة في البحر لتضليل السفن فتصدمها هذه وتتحطم عليها. ويروى عن أحد أشراف شاطئ بريتاني في شمال فرنسا أنه أشار يوما إلى صخرة وقال عنها إنها أكرم حجر في ملكه. والمعروف أن الفرنسيين القاطنين على شاطئ خليج سكاي كانوا في مقدمة مضللي السفن في أوروبا في العصور الوسطى. أما المدن الإيطالية فكانت تقسو في العقوبة ضد من يضلل سفينة وكان القانون يقضي برجمه حتى الموت، كما يُفعَل بالذئاب.

وقد كانت للأسفار البحرية قواعدها وأنظمتها. بعضها وضعها الملوك، وبعضها نما مع الحاجة، وبعضها كان يتفق عليه في كل مناسبة. فمن النوع الأول ما استنه ريكاردوس قلب الأسد لأسطوله، في أواخر القرن الثاني عشر. فقد جاء فيه أنه بعد استشارة رجال الدولة وضع القوانين العادلة لإقرار الحق. ومنها إذا قتل رجل أحد ركاب السفينة رُبِطَ القاتل بجثة القتيل وألقي في البحر. أما إذا كان القتل على الشاطئ دفن القاتل مع المقتول، وإذا انتضى رجل سلاحه وهدد به أو سبب جرحا فلتُقطَع يدُه، وإذا ضرب رجل آخر ولم يسل دمه، غُطِّسَ الضارب ثلاث مرات في ماء البحر. ومن يتفوه بالزور والبهتان أو يسبب غضب الله، يدفع أوقية من الفضة اكتساب المغفرة، أما من ثبتت عليه السرقة فليحلق رأسه وليوضع عليه القار وليُلصَق بالرأس الريش ولينزل من المركب في أول بر تلمسه». على أن المؤرخين المحدثين يرون أن هذا القانون البحري كان شديدا لأنه من نوع الانظمة العسكرية، فإن ريكاردوس سنه للأسطول الذي حمل جيشه إلى سوريا لحصار عكا بعد معركة حطين.

أما القوانين التي تمت مع تطور الحاجة إليها فكثيرة، لعل أشهرها وأكثرها شيوعا في العصور الوسطى قوانين أوليرون. وبموجب هذه نظمت أمور الموانئ ورسو السفن واستعمال العوامات وغير ذلك مما يقلل الأخطار. فالربان كان مسؤولا عن أخطاء الملاحة الناشئة عن جهل أو سوء نية. فإما أن يعوض المسافرين عن خسائرهم، وإما أن يفقد رأسه. والتجار كان لهم حق في تقرير الطريق المتبع وتعيين

الموانئ وطريقة تعبئة المتاجر وترتيبها. وكانوا هم يتولون الإشراف على العمال ودفع أجورهم. وكان تحميل السفن فوق الحد الأقصى ممنوعا بالمرة في شرع المدن الإيطالية ومدن الهنسا وغيرها.

وقد روي أن ربان سفينة من السفن الهنسية جمع الركاب بعيد خروج المركب إلى عرض البحر وقال لهم «لقد أصبحنا تحت رحمة الله وعواصف البحر، فليكن الكل متساوين بقطع النظر عن الأشخاص. وما دمنا معرضين في كل ساعة لخروج القرصان علينا، أو غير ذلك من الأخطار، فإنه يتحتم علينا أن نتدبر أمر إدارة هذه السفينة؛ لذلك يجب أن ننتخب لنا قاضيا وأربعة مستشارين، وهؤلاء الخمسة يفصلون في الخصومات». فلما انتخب هؤلاء قرأ الربان على المجتمعين خلاصة القوانين المعمول بها، وهي المأخوذة من قوانين أوليرون المذكورة. ولما اقتربت السفينة من ميناء الوصول استدعى الربان الركاب ثانية وطلب إليهم أن يسامح كلٌّ أخاه وينسوا ما كان بينهم ويدفنوا الماضي.

وفيما خلفه لنا فابري، من حجاج القرن الخامس عشر، العقد الذي وقعه مع ربان السفينة التي سافر عليها من البندقية إلى يافا. وقد جاء فيه أنه يتحتم على الربان أن يصطحب بحارة ماهرين وأن يقدم وجبتين كاملتين من الطعام في اليوم الواحد، إما في قاعة الطعام أو في الرف، وأن يكون الخبز والبقسماط والخمر والماء والملح والبيض من النوع الجيد، وأن يتعهد الربان بدفع كل النفقات في الطريق حتى نهاية الرحلة. وعلى كل مسافر أن يدفع أربعين دوكة أو قرابة عشرين جنيها خالص الأجرة. وما اشترطته جماعة فابري ألا يصادر الربان

أمتعة من يتوفى في الطريق، وألا يُلقي بالجثة في البحر إلا إذا كانت السفينة بعيدة كثيرا عن الشاطئ.

وقبل أن نترك هذا الحديث نود أن نشير إلى أمرين إشارة سريعة: الأول الوقت والسرعة، والثاني النفقات.

أما السرعة فتبدو لنا من الأمثلة التالية - أن خبر فتح العرب لسوريا وفارس وصل الصين بعد وقوع الحادثة بثماني سنين، ولما توفي فردريك بربروسا في كيليكيا سنة ١١٩٠ لم يعرف أهل ألمانيا بذلك إلا بعد أربعة شهور. أما أسر ريكاردوس في دلماشيا في نفس السنة فقد وصل إنجلترا بعد اربعة اسابيع. وكان المسافر العادي يحتاج» سبعة اسابيع من لندن إلى روما، مع أنه وصلنا خبر رجل قطعها في تسعة وعشرين يوما. أما المعاملات المالية بين إيطاليا وشمبانيا فكان نقلها يحتاج إلى عشرين يوما أو يزيد. وقد كان قطع نحو خمسة وعشرين من الكيلومترات في اليوم الواحد يعتبر أمرا عاديا، مع أن بعض السعاة، قطع أكثر من مئتي كيلومتر في ثلاثين ساعة. أما السفر في البحر فقد كان يختلف باختلاف الطريق المتبعة والفصل. فقد جاء وليم واي مرتين إلى فلسطين في القرن الخامس عشر، وفي المرتين كان يبدأ من البندقية وينتهي بيافا، فاحتاج في المرة الأولى شهرا وفي الثانية نحو شهر ونصف الشهر في الطريق.

واما النفقات فيدلنا عليها أن الراكب العادي كان يدفع ما يقدر بنحو جنيهين أجرة نقله بحرا من المدن الإيطالية إلى الشرق العربي في القرن

الثالث عشر. أما الفارس فكان يدفع أجرة نقله مع رجاله الثلاثة وخيولهم نحو ستة عشر جنيها، وقد دفع أغناطيوس ليولا في القرن السادس عشر أجرة نقله من البندقية إلى يافا سبعة جنيهات. واعتُبِرَ غوزوين من حجاج القرن الثاني عشر مبذرا لأنه أنفق مئتي جنيه على حجه مع جماعته الصغيرة.

وما أحسب أننا نستغرب بعد هذا إذ نعرف أن المصلين كانوا في تلك العصور يطالبون من الله أن يحمي كل من هم في الصعوبات والأخطار ويخصون «المسافرين في البحر والبر».

في المدينة

وصل إلينا ما رواه التاريخ من القرن الثاني عشر الميلاد، أن شاهين من لستر تنازعا ملكية قطعة من الأرض، واتفقا على الاحتكام عليها بالمبارزة، جريا على عادة العصور الوسطى. فتبارزا منذ شروق الشمس حتى الظهر، ولم ينل أحدهما حقا من الآخر، واستمرت المبارزة حتى تحشر أحد المتبارزين في مكان ضيق، وكاد يسقط إلى الخندق فيرتطم فيه، لولا أن تنبه خصمه وأنقذه. فعلت من جمهور المتفرجين صيحة عظيمة، سمعها أمير المنطقة من قصره، فخرج يسأل عن الخبر، فنبئ بما حدث. وعندها تقدم المقدمون في لستر إلى الأمير واتفقوا معه على أن يسمح لهم بترك الطريقة القديمة في حل الخصومات، وإدخال نظام التحكم بالمحلفين، على أن يدفعوا له ثلاثة بنسات عن كل بيت يشرف على الشارع الرئيسي في بلدهم. فقبل الأمير ذلك، ولجأوا إلى اختيار أربعة وعشرين من المحليين لفض الخصومات متى عرضت عليهم.

هذه هي الوسيلة التي لجأ إليها أهل بيتر ليصبح لهم حق خاص في إدارة شؤونهم القضائية، وادارة هذه الشؤون وغيرها كان يعتبر اصلا حتى يصبح المكان مدينة.

على أنّ المدن الأخرى لم تنتظر كلّها مصادفات مثل هذه لتحصل على حقوقها، فكمبردج مثلًا صارت مدينة لها حريتها وإدارتها المحليّة الخاصَّة؛ لأنَّ الملك هنري الأول منحها ذلك في أوائل القرن الثَّاني عشر، وقَصَرَ الملاحة النّهرية في تلك المنطقة عليها، فلم يُسمَح لأحد أن يحمّل سفينة أو يفرغ حمولتها إلَّا على الرصيف الملكيّ في كمبردج، ولم يُذكَر في البراءة التي أعطاها الملك لمدينته المبلغ الذي تحتم على أهلها دفعه.

ولكنَّنا نعرف أنّ سكان مدينة فرنسيَّة دفعوا في القرن ذاته مبلغًا من المال يقدَّر بنحو ١٢,٠٠٠ جنيه بعملتنا اليوم، ثمنًا لحريّتهم، على أنَّ هذه حادثةٌ شاذَّة.

بمثل هذه الوسائل كان يتذرع السكان لشراء حريات المدن. وهذه المدن، إذا حاولنا أن نتقصى أخبارها، نجدها على العموم واقعة في مركز جغرافي يجعلها صالحة للإيجار أو للصناعة أو الدفاع. ومن ثم كانت تستمتع بثروة تمكنها من دفع المبالغ الكبيرة. ومتى تمتعت بحريتها من الأمير أو غيره انصرفت إلى تنمية موارد ثروتها، وتكاد هذه القاعدة تنطبق على كل المدن القديمة التي عاد اليها نشاطها منذ القرن الحادي عشر.

لكن ثمة مدن أُنشِئَت من جديد. وهذه تدل في الغالب على بعد النظر عند أولياء الأمور، وعنايتهم بمصالح التجارة والصناعة. فمن ذلك أن إدوارد الأول، ملك إنجلترا، كان عائدا من آيسلندا فرغب في قضاء بضعة أيام في ضيافة أحد اللوردات في شمال إنجلترا. وفي أحد الأيام نظمت رحلة صيد إكراما للملك. فمر الملك أثناء صيده بقرب مخاضة على النهر الرئيسي في تلك الجهة. وأدرك حالا الفائدة التي تعود على مملكته من إنشاء مدينة هناك، فترك الصيد، وتحدث إلى الرعيان سائلا إياهم عن عمق الماء ومقدار ارتفاعه في وقت المطر وغير ذلك. ثم استدعى رئيس الدير الذي كان يملك الأرض هناك، وبادله أرضه بأرض أخرى في مكان قريب. ثم أعلن الملك رغبته في بناء مدينة وإسكان جماعات يتمتعون بحريتهم وبامتيازات تجارية

كبيرة هناك، وبدأ بإقامة قصر له فيها. فتقاطر الناس ولم تلبث أن بنيت الكنيسة والأسوار وأعطي السكان براءة تجعل مدينتهم حرة. وفي أقل من خمسين سنة صارت مدينة كبيرة .

وهذا النوع من المدن الحديثة النشأة في العصور الوسطى كثير في شمال فرنسا والأراضي المنخفضة وإنجلترا. أما بقية أجزاء أوروبا فتغلب عليها المدينة القديمة، التي هي رومانية أصلا، ولكنها كانت قد تهدمت إثر انحلال الإمبراطورية الرومانية وغزوات البرابرة، ثم عادت إليها الحياة، وغزاها النشاط التجاري فظهرت قوية غنية من جديد. ومثل هذه كانت مدن جنوب فرنسا وإيطاليا.

والمدن الأوربية الواقعة على ملتقى الطرق التجارية بلغت درجة كبيرة من الاتساع فقد كان عدد السكان في بعضها مئة ألف، يقيمون في المدينة وأرباضها، لكن أكثر المدن لم تكن من هذا الحجم. فالذي نعرفه أن كمبردج كان يسكنها في القرن الثالث عشر نحو خمسمئة وخمسين أسرة. وثمة مدن في القارة نفسها كانت لا تزيد عن شارع رئيسي يجتازه الطريق العام، ومجموعة من المنازل والبوايك والخانات والفنادق تقوم في جهة أخرى من المدينة.

كانت المدن مراكز الصناعة والتجارة. وكانت إدارة أمور المدينة بيد التجار وزعماء الصناعة فمنهم قناصلها ورؤساؤها وأعضاء مجلسها وقضاتها. وكانت مصلحة المدينة تقوم على أكتافهم. فهم الذين يقررون الرسوم الجمركية التي تدفعها التجارة الأجنبية، وهم الذين

كانـوا يعينـون مـا يدفعـه أهـل البلـدة مـن ضرائـب. وهـم الذيـن يـرون إلى اسـتتباب الأمـن ومـا إلى ذلـك مـن ضرورة المحافظـة عـلى أرواح النـاس وأموالهـم.

ولكـن إلى هـذه الادارة السياسـية العامـة كان في المدينـة تنظيـم صناعـي تجـاري» خـاص تقـوم بـه النقابـات.

ومـع أننـا لا نعـرف منشـأ هـذه النقابـات تمامـا، فالـذي لا نرتـاب فيـه أنهـا كانـت يعظـم شـأنها كـما اتسـعت صناعـة المدينـة أو تجارتهـا. ولعـل أصلهـا اجتماعـات دينيـة كان يعقدهـا المشـتغلون بنـوع واحـد مـن الأعـمال للعبـادة. لكـن المهـم فيهـا هـو الـدور الـذي مثلتـه في حيـاة المـدن الاقتصاديـة.

كانـت النقابـة تضـم أصحـاب العمـل والعـمال المشـتغلين عندهـم، وكانـت ترمـي إلى تنظيـم المـدة التـي يقضيهـا الصانـع كي يتقـن صنعتـه، وتعيـين عـدد مـن يقبلـون في المصنـع الواحـد، وأجـور العـمال. فغايتهـا إذن الحصـول عـلى مصنوعـات مـن درجـة متقنـة، فتحمـي بذلـك حتـى المسـتهلك. وكان لهـا موظفـون يقومـون بالتفتيـش عـلى الأعـمال باسـتمرار، ويتأكـدون مـن جـودة الـواد الخـام المسـتعملة. فقـد جـاء في أنظمـة نقابـة التجـارة الباريسـية أنـه لا يجـوز أن تصنـع البراميـل إلا مـن خشـب السـنديان الخـالي مـن العقـد. وقـد منـع العمـل ليـلا في باريـس لأن النـور كان غـير كاف لإنتـاج مصنوعـات جيـدة.

وتحديـد عـدد مـن يقبـل في المصنـع كان القصـد منـه الحيلولـة دون التزاحـم

وكـثرة العـمال عـلى غـير طائـل. وكانـت النقابـة تحـدد الأسـعار وتعـين أماكـن البيـع ووقتـه وسـاعات العمـل وأيـام الراحـة. وقـد كان البائعـون الباريسـيون يوصـون بأنـه إذا وقـف مشـتر أمـام بائـع طعـام للمسـاومة، لا يجـوز لبائعـي الطعـام الآخريـن أن يدعـوه إليهـم إلا متـى تـرك المـكان الأول مختـارا.

وكان أعضـاء النقابـة الواحـدة يعـين بعضهـم بعضـا في أوقـات الضيـق، كـما كانـت النقابـة نفسـها تتـولى مسـاعدة العاجـز مـن أعضائهـا، وتنظيـم اجتماعـات دينيـة، وحفـلات اجتماعيـة للأعضـاء. ولا تـزال المـدن الأوروبيـة المختلفـة يظهـر فيهـا ممثلـو النقابـات العديـدة في أيـام احتفالاتهـا وأعيادهـا البلديـة، ومـن هـذه يـوم «محافـظ لنـدن» ، إذ يسـير في موكبـه ممثلـو النقابـات التـي لا يزيـد وجودهـا اليـوم عـن أنـه مظهـر اجتماعـي قومـي.

والمـدن الصغـيرة كانـت تكتفـي بنقابـة واحـدة تضـم الصنـاع وأخـرى تضـم التجـار، فأكـثر المـدن الإنجليزيـة في القـرن الخامـس عـشر كانـت تحـوي نقابـة صناعيـة واحـدة، ونقابـة تجاريـة واحـدة. وتـدور أعمالهـا في الغالـب حـول تنظيـم صناعـة المنسـوجات الصوفيـة والاتجـار بالصـوف الخـام. وكانـت تجـارة الصـوف مـوردا رئيسـيا للحيـاة التجاريـة في إنجلـترا، إذ كان يصـدر إلى مـدن فلانـدرز. أمـا نسـج الصـوف فـكان بعـد في دور النشـوء في إنجلـترا نفسـها، ومـن ثـم كانـت نقابـة تجـار الصـوف تتمتـع في إنجلـترا وخارجهـا بسـلطان كبـير في نواحـي الحيـاة الاقتصاديـة والسياسـية. وقـد تـم تنظيـم الاتجـار بالصـوف رسـميا في سـنة ١٣٥٤، وترتـب عـلى ذلـك أن أصبـح تعيـين الموانـئ، التـي يُرسَـل منهـا الصـوف إلى القـارة بيـد هـذه

النقابة، بالاتفاق مع الحكومة. وهذا سهل على الملك إرسال مندوبيه لمراقبة حصته من الجمارك، وسهل على التجار السفر مجتمعين، ويسر لأصحاب السفن المحافظة على سفنهم وبضائعهم من أخطار البحر. وصار من الممكن للنقابة أن تراقب جودة المواد المشحونة وخلوها من التراب أو الأصناف الرديئة وغير ذلك.

على أن بعض المدن الأوربية كانت فيها أصناف كثيرة من الصنائع، وكان لكل صناعة نقابة خاصة بها، فثمة نقابة الخياطين ونقابة الخبازين ونقابة الشماعين، على نحو ما نجد في باريس.

وكان التعاون بين أهل الحل والعقد في المدينة وبين مديري النقابات وثيقة، فتعاون الجميع في سبيل إقامة الأسواق وبنائها، وتنظيم الأسعار وتحديدها، والتفتيش على المبيعات. وتعاونوا في سبيل تأمين الغذاء الكافي للعمال. وفي كثير من المدن أقامت السلطات البلدية المطاحن والمخابز والمسالخ على حسابها لتأمين حاجات العمال كلها.

وكانت المدينة تحرص كل الحرص على مظهرها الخارجي فتعنى بالبنايات العامة الرئيسية. وهذه كانت ثلاثا: وهي الأسوار، إذ كانت المدينة معرضة للغزو، والكنيسة، ودار المجلس البلدي أو دار النقابة. وقد رأينا كيف أن إدوارد اختط الكنيسة والأسوار لمدينته التي أنشأها، وأقام قصره، وذلك قبل أن يكون لدار المجلس البلدي شأن خاص. وقد يكون للمدينة الواحدة غير دار للنقابات، إذا تعددت هذه. ومما لا ريب فيه أن من أجمل الأبنية التي خلفتها لنا العصور الوسطى

هـي دور مجالسـها البلديـة، ونقاباتهـا، التـي يراهـا المسـافر اليـوم عـلى حالهـا في كثـير مـن المـدن الأوربيـة.

أمـا الـدور الخاصـة فـكان يغلـب عليهـا أن تكـون مـن الخشـب، وقـد بنـي الطابـق الأسـفل منهـا مـن الحجـر، إذا توفـر. والمـدن الحديثـة النشـأة كان يراعـى فيهـا تنظيـم شـوارعها بحيـث تتقاطـع في زوايـا قوائـم، مثـل الـذي تشـاهده في كثـير مـن المـدن الفرنسـية والألمانيـة. أمـا المـدن القديمـة فلـم يكـن ثمـة سـبيل إلى تغييرهـا؛ ولذلـك تعرجـت طرقهـا كـما شـاءت وشـاء سـكانها.

وكانـت الفنـادق مـن العنـاصر الرئيسـية للمدينـة التجاريـة. فالتاجـر والرحالـة والحـاج والزائـر يـأوي إليهـا. وكانـت فنـادق إنجلـترا، عـلى مـا نـرى مـن الرسـوم التـي وصلتنـا عنهـا، والصـور التـي تركهـا كُتَّـابُ القـرون الوسـطى وشـعراؤها، تتكـون مـن جزأيـن سـفلي وعلـوي. فالسـفلي تحفـظ فيـه المتاجـر والأمتعـة، وقـد يكـون فيـه حانـة يتنـاول فيهـا النـزلاء شرابهـم، والعلـوي للنـوم؛ وهـو قاعـة واحـدة كبـيرة رتبـت فيهـا الـسرر بحيـث تفصـل بينهـا حواجـز.

ولم تكـن الفنـادق في بقيـة أوروبـا تختلـف عـن هـذه كثـيرا. وكان مـن عـادة القـوم أن ينزلـوا في بيوتهـم أفـرادا مـن المسـافرين تضيـق بهـم الفنـادق، ويتقاضونهـم أجـرا عـلى ذلـك.

وقـد حفظـت لنـا الروايـة الإنجليزيـة أجـزاء مـن قصـة فلـور الـذي خـرج يفتـش عـن حبيبتـه بلانـش فسـار مـع جماعتـه حتـى تعـب، فلـما وصـل

المدينة نزل في أحد هذه البيوت التي كان يملكها سيد غني كثير الأسفار، صاحب تجربة واختبار، فأجلس هذا السيد فلور قربه على المائدة، وتلطف معه في الحديث، لكن الزائر ظل صامتا حزينا، ولم يأكل شيئا ولم يشرب. ولفت ذلك نظر ربة الدار، فأشارت إلى زوجها أن زائرهم ليس تاجرا، ولكن لعل له غرضا يمكن مساعدته فيه. ويتنقل الحديث فيذكر صاحب البيت أن سيدة اسمها بلانش كانت في داره قبل وقت قصير. وعندها يتنبه فلور فيعطي مضيفه كأسا فضية هدية على خبره. وينصرف إلى الأكل والشراب فيمتع نفسه بها. ويقضي ليلته هناك، وفي الصباح يغادر المكان مع جماعته، بعد أن ينقد الرجل مئة شلن أجرة لإقامته عندهم.

لئن جاز لنا أن نسمي النصف الأول من العصور الوسطى زمن الإقطاع والحياة الزراعية، فالنصف الثاني منها حري بأن يسمى «عصر المدينة» فقد كانت المدينة مركز الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية.

فِي الدَّيْر

عرفت أوروبا في العصور الوسطى مظهرين من مظاهر النشاط الروحي والفكري؛ هما الدير والجامعة. وفكرة اعتزال العالم وسكنى الدير شرقية قديمة العهد، فقد ظهرت بوادرها في مصر في أواخر القرن الثالث الميلاد وعمت أجزاء الشرق الأدنى في القرن الرابع، وسرت عدواها إلى أوروبا في القرن نفسه. فكان في أواخره ما يزيد عن عشرة من الأديرة في فرنسا وحدها، وكان هذا الاعتزال احتجاجا من الناس على المادية التي طغت على أوروبا في أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية. ولم يكن لهذه الأديرة نظم تعين اتجاهها، وتحدد ماهيتها، وأكثر ما كانت تبنى حول مقام قديس، مثل الدير الذي بناه القديس بندكت.

كان الرهبان المقيمون في أحد هذه الأديرة الكثيرة يعيشون على ما يهبه المحسنون للدير. لكن بندكت كان يرى غير هذا، لقد أراد أن يكون الدير مأوى روحيا مستقلا بذاته عن أهل الإحسان، ولن يكون كذلك إلا إذا استقل الدير اقتصاديا؛ لذلك كان يرى أنه من الواجب أن يعمل الرهبان: يعملون في سبيل المعيشة، ويعملون كي لا يكسلوا. ومن هنا ترى أن بندكت يقول في النظام الذي وضعه «إن الكسل عدو الروح الأكبر؛ ولذلك يتحتم على الرهبان أن يشغلوا أنفسهم إما بالعمل اليدوي أو بالقراءة في الأسفار المقدسة. ولتوزع ساعات النهار بين هذين النوعين من الأشغال بحسب الفصول ... فليعمل الرهبان في ساعات الصباح الأولى، وبعد الظهر، وليقيلوا بين الوقتين. أما المساء فللصلاة والقراءة. وإذا كانت أحوال الدير تحتم العمل ساعات أطول،

فليقم الرهبان بذلك دون تذمر. فإنه يجب عليهم أن يعيشوا من كد يمينهم كما كان يعيش الرسل وآباء الكنيسة الأوائل».

شاعت الرهبنة البندكتية في القرون الثلاثة التي تلت إنشاءها، وأصبحت النظام الرئيسي للأديرة. وأقبل عليها من مل الحروب الكثيرة التي قامت في أوروبا في تلك الأثناء، ومن أفقرته واجبات الإقطاع فعاف العالم، ومن حن إلى حياة روحية: فكانت هذه الأديرة يسكنها عدد كبير من الناس، وكان كل دير مزرعة نموذجية، فأدى ذلك إلى تحسين أنواع الحبوب والغلات والاحتفاظ بحياة زراعية منظمة في مناطق كانت على وشك أن تغزوها الحشائش والأعشاب البرية وتطغى عليها. وبذلك عملت هذه الأديرة على نقل ما عرفه الرومان من وسائل الزراعة العالمية إلى الجماعات المدنية التي أخذت تعمر غرب أوروبا بعد استقرار القبائل وإنشاء الممالك.

على أن الدير الذي كان مزرعة كان مشغلا وحانوتا أيضا، حتى يتم استقلاله اقتصاديا. ويصعب علينا الآن أن نعرض للصناعات التي كان الرهبان وأجراؤهم يتعاطونها، ولكن أهمها صناعة الخمور وعمل أنابيب الرصاص وأواني الخزف.

ومع نفوذ النظام البندكتي في الرهبنة وانتشاره، فإن أوروبا عرفت بعد القرن العاشر، أنظمة كثيرة للرهبنات، كانت تتفق مع الحاجات الجديدة التي ظهرت في أوروبا في ذلك الوقت. فنحن نجد مثلا رهبنة كلوني ورهبنة سيتو والفرق الدينية العسكرية والإخوان الدومنيكان

والفرنسيين. فرهبنة كلوني كانت محاولة لإنعاش الحياة الروحية من جديد لأن الأنظمة القديمة كانت قد تغلبت على أتباعها السلطة والنزعة المادية. والفرق الدينية كانت تجري الحملات الصليبية، وجماعات الإخوان خدمت الحركات التبشيرية في أوروبا والخارج. ولعل مما يدلنا على تأثر الناس بالرهبنة في أوروبا في تلك العصور هو أن نشير إلى عدد هذه الديارات. فقد حفظ لنا التاريخ أن فرنسا أنشئ فيها أحد عشر ديرا في القرن الرابع، لكنه كان فيها ما يزيد عن الخمسمائة في القرن العاشر. أما في القرنين التاليين فقد بني فيها ألف دير أو يزيد على أيدي جماعات من كلوني وستو.

كان الناس على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية يرون في تقديم الهبات والهدايا للدير عملا من أعمال البر الرئيسية؛ لذلك لا يلبث الدير أن ينعم بثروة كبيرة، فيقطع الأرض للفلاحين الذين يريدون أن يعيشوا في حماه، فدير القديس ركوي كان له ما يزيد عن المئة من الأتباع وكان يملك ٢٥٠٠ بيت من بيوت المدينة التي نشأت حوله. وكان أتباع الدير والمستأجرون لبيوته وأراضيه يدفعون أجر ذلك نقدا، ويحملون إليه بالإضافة في كل سنة عشرة آلاف دجاجة وخمسة وسبعين ألف بيضة ومئتي كيلو غرام من الشمع. هذا مع العلم بأن هذا الدير لم يكن من الأديرة الغنية جدا.

وكثير من الرهبان، خصوصا رهبان سيتو، كانوا يختارون المستنقعات والغابات النائية لإقامة دير لهم. إذ كان ذلك أدعى إلى تمتعهم بالعزلة، ومن ثم كانوا يلقون من النبلاء تشجيعا كبيرا. فإما أن ينضم هؤلاء

إلى الدير ويهبوه أملاكهم أو يهبوه بعضها لأن الرهبان يحسنونها. وكثيرا ما كان الأمراء ينشئون الطرق لتسهل على الرهبان عملهم.

وقد حفظ لنا التاريخ قصة إنشاء دير كليرفو على يد القديس برنارد سنة ١١١٥ للميلاد. قال الراوي «رغب برنارد وجماعته الصغيرة في ترك ديرهم لأنهم لم يجدوا فيه الهدوء الذي طلبته نفوسهم، فاجتمعوا في الكنيسة وتقدم إليهم الرئيس وباركهم وخرجوا بعدها من الدير إلى الفضاء الواسع، وبعد أن قطعوا نحو مئة ميل ولوا إلى واد ظليل تكسوه غابات مكتظة تملأه وحشة، ويجري فيه ماء غزير ... فاختار برنارد المكان لديره الجديد ... وكان ذلك في حزيران ... وبدأ العمل مع جماعته فأقاموا بناء كانت فيه الكنيسة وقاعة النوم والطعام، ولم تُكس أرضه بشيء قط، واكتفى الإخوان بالنور القليل الذي كان يدخل من نوافذ ضيقة لا تزيد الواحدة منها عن حجم اليد. كان طعامهم الأعشاب والماء، وكانت سررهم صناديق مستطيلة يتسع واحدها للرجل ينام داخله، وفراشه وغطاؤه كان من ورق الشجر المجفف يضعه المرء داخل الصندوق ويدخل نفسه بينه. ولما انتهى الرهبان من تحضير هذا البيت كان الصيف قد أدبر، والخريف قد أقبل وكان الشتاء القاسي أمامهم، وليس عندهم شي يتقون به أذاه وشدته. فلا طعام يدفئ الجسم، ولا ثياب صالحة، وكانت ثيابهم وأحذيتهم قد تمزقت، وبدت على وجوه الرهبان أمارات اليأس والفزع ورغبوا إلى برنارد في العودة إلى ديرهم الأصلي، لكن برنارد لم يلن، ولم يلبث أن

جاءه أول الغيث، إذ زاره يوما ثري وأهدى الدير عشرة دنانير ... ثم انهمر الغيث».

هذه القصة ترينا الطريقة التي نمت بها الأديرة التي كان مؤسسوها يفتشون عن الأماكن القصية ليعتزلوا العالم. لكن ثمة أديرة أنشئت من أول الأمر قرب المدن لأن رهبانها كانوا يريدون أن يخدموا سكان المدن، ويعينوهم في شؤونهم الروحية. وثمة أديرة اختار منشئوها أماكنها على الطرق الرئيسية لتكون منازل يأوي إليها المسافر والحاج والرحالة، وهذا سر ما ترى من أديرة كثيرة في الممرات الجبلية، كالتي في ممرات الألب وغيرها.

ونحن إذا عرضنا للأديرة عامة لاحظنا أنها من حيث تطورها الاقتصادي كانت عاملا رئيسيا في تنمية موارد الثروة الأوربية ومظهرا أساسيا من مظاهر النشاط الاقتصادي. فقد كانت مؤسسات زراعية أول الأمر، ثم أخذت تبيع غلاتها في أسواقها الخاصة أو الأسواق القريبة منها، ثم اتجهت إلى صنع أشياء خشبية وجلدية ونسج القاش وعمل أدوات معدنية، ونشأت حولها أسواق تجارية لها صبغة عالمية، وأصبح بعضها من مراكز المال الكبرى في أوروبا. وهذه النزعة كانت قوية أيام الحروب الصليبية. بل إن بعض الأديرة كان يسك النقود الخاصة به، كما لو كان مدينة أو حكومة.

وبناء الدير كان واسع الرقعة كثير الأبنية متعددها، وكان يطوفها كلها سور ضخم. فقد كان دير سنت غال تشغل أبنيته ما يزيد عن عشرة

آلاف متر مربع من الأرض، ويتكون من كنيسة وغرف النوم وقاعات الطعام والعمل وأماكن للضيفان ومخازن للغلات وبوايك واسطبلات مختلف أصناف الحيوانات ودور للخدم. وقد تحيط بالدير، على بعد منه، صوامع وبيوت صغيرة يأوي إليها نساك يعيشون على ما ينالونه من الدير. وكل هذه كانت تحت إشراف رئيس الدير الذي كان له منزل خاص به، فلا يشارك بقية الرهبان مساكنهم. وكان له معاونون، يختص كل منهم بالإشراف على ناحية من نواحي الحياة في الدير؛ فهناك المسؤول عن الكنيسة وإقامة الصلوات، وهناك رئيس المرتلين وهناك أمين الضيفان الذي يعتني بالعاديين منهم؛ لأن الضيوف الأشراف كانت العناية بهم من واجبات الرئيس الشخصية.

ولعل أطرف أجزاء الدير بالنسبة لنا نحن، هي المستشفى وقاعة النسخ والمضافة. وقاعة النسخ كانت في الغالب واسعة، يتمكن عدد كبير من النساخ من العمل فيها معا. وقد وصلت إلينا أخبار عن عناية واحد من هؤلاء الرؤساء جاء فيها «كان وليم يعرف أن قراءة الأسفار المقدسة هو غذاء العقل والروح؛ لذلك اهتم باختيار عدد من شبانه وتوجيههم إلى إجادة الخط وعهد إليهم بنقل الأسفار المقدسة ومخلفات القديسين. وكان يشرف عليهم راهب واسع الاطلاع في نواحي المعرفة التامة يعيّن لكل منهم عمله، ويصحح أخطاءه».

وكان أحد الرؤساء يعد نعم الله على ديره فيذكر وجود نساخين ماهرين عنده. وفي هذه القاعات، وعلى أيدي هؤلاء النساخين، انتقلت إلى أنحاء أوروبا كتابات جيروم وأوغسطين وبيد وأنسلم. ولم يلبث

النسـخ أن تخطـى الكتابـات الدينيـة إلى مخلفـات اليونـان والرومـان في العلـم والفلسـفة والمنطـق فحفظهـا لأبنـاء العصـور الحديثـة.

أمـا قاعـة الضيفـان أو المضافـة فكانـت جـزءا رئيسـيا مـن حيـاة الديـر، وكان لهـا أمـين يـشرف عـلى شـؤونها. كانـت مفتوحـة لـكل عابـر سـبيل، يُطعَـم فيهـا وينـام، بـل إن هـذه المضافـة كان فيهـا مـكان لإقامـة الصـلاة الخاصـة بالضيـوف، وقـد جـاء في وصـف مضافـة درهـام في إنجلـترا مـا يـأتي: «كانـت دار الضيافـة المشـهورة في الجهـة الغربيـة مـن الديـر مشرفـة عـلى المـاء. وكان يـشرف عليهـا وكيـل الرئيـس بنفسـه ... وكان طعامهـا جيـدا، وأثاثهـا جميـلا نظيفـا ... ولم تكـن الإقامـة فيهـا محـددة بوقـت ... جاءهـا في يـوم مـن أيـام حزيـران راهبـان ومعهـما جماعـة كبـيرة مـن الرجـال العاديـين ... وكان اليـوم يـوم أحـد، ولكنهـم اسـتقبلوا باحـترام، وأعطـوا أماكنهـم وقـرئ قـداس خـاص مـن أجلهـم وقـدم لهـم الطعـام، ثـم تركهـم أمـين الـدار وانـصرف إلى قـراءة أسـفاره المقدسـة. أمـا هـم فخرجـوا يتنزهـون ويمتِّعـون الطـرف برؤيـة قلعـة درهـام».

ولا نجـد مكانـا آخـر كانـت تتعاقـب فيـه المناظـر الخلابـة كـما كانـت تتعاقـب في دار الضيافـة في أديـرة العصـور الوسـطى ... فقـد كان يـأتي إليهـا جماعـات مـن كل طبقـة وصنـف مـن النـاس - فالنبلاء والسـيدات والفرسـان والتجـار والشـعراء والمغنـون والرهبـان ورجـال الديـن والرحالـون والحجـاج والإخـوة والمسـتعطون- كل أولئـك كانـوا يمـلأون القاعـات ويشـغلون المقاعـد المحيطـة بالموائـد». وهـذه الجماعـات كانـت سـلوة لأهـل القـرى المحيطـة بالديـر. إذ لولاهـا لظـل الريـف الأوروبي بعيـدا عـن كل حركـة ونشـاط،

ولقضى الناس حياتهم بين الحقل والبيت والكنيسة. والمستشفى كان مكانا للعناية بالمرضى.

كان من الطبيعي أن تغرر الثروة العظيمة التي وصلت إلى أيدي الرؤساء بالأديرة فتخرج بأهلها عن الطريق الأصلية التي اختطها لها مؤسسوها وأرادها لها منشئوها، فانصرف بعضها إلى الناحية الاقتصادية البحتة، وصرف جهده في تنمية هذه الثروات الضخمة. وهذا ما قصده جرالد الولشي في حملته على بعض أديرة مر بها فلم تعجبه، وكان ذلك في القرن الثاني عشر، إذ قال عن الرهبان إنهم لم يقوموا بأي وعظ أو قراءة القداس أو أي عمل روحي بالمرة. كانوا علمانيين عاديين لكنهم قد نذروا الطاعة والهوية والفقر ... وبذلك عاشوا جماعات، وامتلكوا الأراضي الواسعة، واختاروا رؤساءهم وكهنتهم، ولم يعملوا في الأرض بأنفسهم ولكنهم أجروها أن يدفع لهم عنها نقودا وغلات.

وهذه الصورة وأمثالها هي التي كان ينتج عنها أن تقوم بين آن وآخر حركات جديدة تعمل لإصلاح هذه الأحوال فتتزايد الأديرة وتزداد الرهبنات وتتعدد على حسب البواعث والحاجات. ومن ثم كانت الحياة الروحية مستمرة في أوروبا، وإن طغت عليها نواح أخرى فقد كان ذلك مؤقتا. والوصف الذي أختم به هذا الفضل هو لدير كليفو، وهو يتفق وما نعرفه عن أكثر الأديرة، في أوقات نشاطها ونجاحها، في توجيه سكانها ومن يتصل بهم في السبيل السوي. فقد جاء في هذا الوصف الذي وصل إلينا من القرن الثاني عشر ما يأتي: «عندما تدخل كليرفو، بعد أن تخطى سفح التل المشرف عليه، تشعر أنك في هيكل

لله. والوادي الهادي الصامت، ذو الأبنية البسيطة، يعبر عن الضعة التي يشعر بها سكانه. وقد سيطرت سكينة تشبه سكون الليل في هذا الوادي الخاصة بالرجال العاملين دونما تراخ أو كسل ... والوحدة التي يمر بها أهل هذا الوادي هي مصدر أساسي لسعادتهم الروحية ... ويتحدث الناس عن العجائب التي تتم في هذا المكان، وليس ذلك بغريب - ففيه تعود إلى المعتوهين عقولهم ويولدون من جديد، وفيه يصبح المتكبر متواضعا والغني فقيرا وفيه تتحول ظلمة الخطاة إلى نور ... والشعور بالسعادة الروحية، الذي يملأ قلوب أهل كليرفو، يحملهم على الاعتقاد بأن صعودهم إلى السماء قد بدأ من الآن ... فإذا صلوا وهمسوا في صلواتهم شعرت أنهم يتصلون بالله بالروح والحق ... حتى في أعمالهم اليدوية يبدو عليهم الاطمئنان الروحي والعمل بوحي من الروح الإلهي ... ومع أنهم أصلا من طبقات متباينة في حياتهم الاجتماعية فقد زال كل ما كان بينهم من فوارق وأصبحوا الآن بنعمة الله شيئا واحدا».

هذا هو الدير الذي كان مركز الحياة الروحية في العصور الوسطى.

في الجامعة

كانت مدرسة القصر التي أنشأها شارلمان لتعليم أبناء الأمراء من أقدم المدارس التي قامت في العصور الوسطى. وقد حافظ عليها خلفاؤه واهتموا بها، ومثلها كانت المدرسة التي أسسها ألفرد الكبير في وسكس بإنجلترا لما انصرف إلى تنظيم مملكته. واهتمت هذه المدرسة الملكية بتعليم اللغة اللاتينية وأمور الكتاب المقدس وإتقان الطقوس الدينية، وكان ألفرد يجمع لها الطلاب من كان يعلق عليهم آمالا لخدمة الدولة في مستقبل حياتهم، سواء في الإدارة المدنية أو في الوظائف الدينية.

ولا نعرف أن كثيرا من الملوك فتح مثل هاتين المدرستين. ولكن المعروف أن قيام الرهبنات في العصور الوسطى أدى إلى انتعاش حركة التعليم في مداس الأديرة، ومدرسة الدير كانت خاصة بتعليم الرهبان في الدرجة الأولى، لكن عندما يكون الدير قريبا من قرية أو مدينة فإن أبناءها كانوا يترددون على مدرسة الدير يتعلمون فيها، وهذه المدارس كانت أكبر عددا من مدارس القصور الملكية وأكثر استمرارا؛ لذلك كان أثرها في الحياة العلمية في العصور الوسطى أكبر.

بالإضافة إلى هذين النوعين من المدارس كان هناك نوع ثالث هو «المدارس الكاتدرائية». وسميت كذلك لأنها كانت تقوم تحت إشراف رجال الكنيسة في المدن الكبيرة، وكان مركزها الكنيسة نفسها. ولما كانت هذه الكنيسة تسمى كاتدرائية، فقد نسبت المدارس إليها، وكان غرض هذه المدارس إعداد رجال الدين للقيام بشؤون الكنيسة وخدمة الجماعة، وكانت شهرة هذه المدارس تتوقف على المعلمين أكثر من أي شيء آخر. فإذا قيض لإحداها معلم مشهور تقاطر إليها الطلاب من

كل صوب، وعندئذ كانت المدرسة تتزعم الحركة العلمية في المنطقة كلها. وقد انتهت زعامة هذه المدارس في شمال فرنسا في القرن الحادي عشر إلى مدرستي شارتر وباريس.

وإذا نحن أخذنا مدرسة شارتر وجدنا أن منهاج الدروس فيها كان يشمل اللغة اللاتينية والبلاغة والمنطق والفلك والحساب والهندسة والموسيقى، وهذه المباحث السبعة كانت تدرس في جميع هذه المدارس على اختلاف أماكنها وتباعدها، ومدارس فرنسا وإسبانيا كانت تعنى بالحساب والهندسة أكثر من غيرها لتأثرها بما كان للعرب في الأندلس من تقدم في هذين العلمين.

لكن في القرن الحادي عشر دخلت المدارس أبحاث جديدة، واستمر دخولها في القرن الثاني عشر، ومن هذه الأبحاث الجديدة التشريع الروماني وفلسفة أرسطو. وأقبل المتعلمون على الأبحاث الجديدة إقبال الظمآن على الماء العذب. وشملت العناية بها رجال الدين والعلمانيين على السواء. وبحث الطلاب عن المدرسين الماهرين في هذه المواضيع وتقاطروا إليهم لينهلوا من منبع علمهم الغزير، فصارت بعض المدارس تغص بآلاف الطلاب، وكانت هذه الحركة هي بدء تأسيس الجامعات في أوروبا.

ولما كثر عدد الطلاب والمعلمين صار من الضروري تنظيم أمورهم، وكان المألوف في العصور الوسطى أن تنشأ نقابات لتحقيق مثل هذه الغاية، فنشأت نقابات للمعلمين والطلاب؛ أما المعلمون فكان يهمهم

ألا يزاحمهم أدعياء العلم، فاهتموا بما يمكن تسميته «إجازة التعليم». ذلك أن المعلم متى اطمأن إلى معرفة الطالب وتمكنه من علمه منحه «إجازة التعليم»، فصار له الحق بالتدريس، ولا يمكنه ذلك بدونها. وهذا الأمر كان معروفا من قبل في العالم العربي. وأما الطلاب فكانوا يهتمون بالمحافظة على حقوقهم كجماعات، فلا يعتدى عليهم، وكانوا يريدون تحديد واجباتهم، فلا يتجاوزها المعلمون أو غيرهم.

كانت باريس في القرن الثاني عشر قد بَعُدَ صيتها وعظم شأنها على يدي وليم وأبِيلار، حتى صارت في طليعة مراكز العلم؛ ولكثرة ما كان يؤمها من الطلاب والمعلمين كانت أول مدينة نَظَّمَ فيها أهلُ العلمِ أنفسَهم، ومن ثم كانت أول جامعة في شمال أوروبا جامعة باريس. فقد انتظم المعلمون فيها في نقابة، وكان المعلم الجديد، بعد أن يحصل على إجازة من معلمه الخاص، ومن رئيس المعهد، يتوجب عليه أن ينضم إلى النقابة. وكان هذا الأمر يتطلب حفلة خاصة يرحب فيها المعلمون القدماء بالزميل الجديد فيأكلون ويشربون ويطربون على حسابه. وأصبحت هذه الحفلة جزءا لا يتجزأ من الإجراءات اللازمة لإدخال العضو الجديد في زمرتهم، بل إنها اكتسبت، بعد مدة قصيرة صبغة قانونية. وكانت الحفلة تبدأ بشكل رسمي إذ يتقدم المعلم الجديد فيقسم يمين الولاء لأنظمة الجماعة والمسؤولين فيها، ثم يجلس في كرسي كبير، ويوضع بين يديه الكتاب الذي يدل على نوع دراسته. فالذي يدرس الآداب كان يوضع أحد كتب أرسطو بين يديه، ويلبس خاتما وتوضع على رأسه طاقيه مربعة الشكل ثم يتقدم المشرف على

الحفلة فيقبله علامة على قبوله في أخوة المدرسين، وعندها يلقي العضو الجديد خطبة الافتتاح. فإذا انتهى الشكل الرسمي انتقل الجميع إلى المائدة التي أعدها لهم الزميل الجديد.

ومن الثابت أن بداءة هذا النظام كانت في القرن الثاني عشر، في أواخره، لكن تمامه جاء في القرن الثالث عشر أو بعده. ومن الأمور التي أثرت في حياة الجامعة الباريسية الميثاق الذي منحه فيليب أغسطس ملك فرنسا للجامعة سنة ١٢٠٠. فقد حدثت خناقة صاخبة بين طلاب الجامعة وبين أهل باريس في تلك السنة، بدأت في الحانة وانتهت في الشوارع، ونال الطلاب أذى شديدا من جرائها. فتقدم الملك إلى إرضائهم فعاقب رئيس المجلس البلدي الذي كان قائد الشعب. وأصبح يتوجب على صاحب هذا المنصب أن يحترم حق الطلاب في الاجتماع، ما دام مدرسوهم لا يمانعون في ذلك. وتلا هذا الميثاق أن استقلت الجامعة عن القضاء المدني في باريس، وأصبحت قضاياها تنظر في المحاكم الدينية.

وكان من نواحي التنظيم الأخرى التي عني بها المدرسون على أيدي نقابتهم المدة التي يقضيها الطالب قبل أن يسمح له بالتقدم إلى الامتحان الأخير، ونوع المواد التي يتحتم درسها في كل حالة. ولما كانت المواضيع بحد ذاتها متنوعة، فقد نشأت أربع نقابات المدرسين: واحدة تضم معلمي الآداب، وأخرى تضم معلي القانون، وثالثة تضم معلمي الطب، ورابعة وهي التي اعتبرت أعلاها كلها، كانت تضم معلمي اللاهوت. وكان لكل من هذه عميد، وكان عميد الآداب، بحكم كثرة

المدرسين والطلاب في دائرته، من أول الأمر، صاحب نفوذ خاص جعله على توالي الأيام الرئيس الأعلى للجامعة.

وكان طلاب الآداب خاصة مقسمين إلى أمم. ففي باريس كانوا أربع أم: هي فرنسا ونورماندية وبيكاردي وإنجلترا. وليس معنى هذا أن الطلاب كانوا من هذه البلدان فقط، ولكن هذه كانت الأصول. فالطلاب الذين جاؤوا بعد التقسيم انضموا إلى هذه الأمم بحسب الجهة. فالأمة الفرنسية كانت تشمل جميع الطلاب الآتين من جنوب أوروبا، والامة الإنجليزية كانت تضم جميع طلاب الشنال. وكان زعيم كل من هذه الأمم ينتخب من أبنائها.

واشترط، في وقت مبكر من أدوار التنظيم، أن يختار كل طالب المعلم الذي يريده. فلا يظل حرا في التنقل من واحد إلى آخر. وحددت الكتب التي كان من الضروري أن تدرس في السنوات الخمس أو الست التي يقضيها المتعلم في الجامعة، وهذه المدة كانت الحد الأدنى لطلاب الآداب. أما طلاب اللاهوت فكانت المدة ضعف ذلك أو تزيد؛ لأنه لم يكن يجوز لهم البدء بدراسة اللاهوت حتى يحصلوا على درجة «العالمية» في الآداب أولا. ومثل هذا كان ينطبق على طلاب الطب أيضا. وكانت طريقة التدريس أن يقرأ المعلم النص ويشرحه ويفسره ويعلق عليه. وقد يكون عدد الطلاب كبيرا، فيكون على يمين العلم ويساره رجلان يعيدان ما يقول حتى يصل إلى جمهور المستمعين. ولم تكن هذه الدروس تُلقى في أماكن خاصة بها، بل كانت أية قاعة تصلح لذلك، وقد تُلْقَى الدروسُ في الحانات، إذ يخليها روادها.

وكان الطلاب أحرارا في شؤون معيشتهم واختيار أماكن السكنى. فالأغنياء منهم كانوا يستأجرون منازل يقيمون فيها مع الخدم والأعوان، أما الفقراء، وهم أكثر الطلاب، فكانوا يقيمون جماعات. فيستأجرون قاعة يسكنونها ويشتركون في دفع أجرتها، وينتخبون أحدهم لجمع الأجرة ودفعها والإشراف على أمورهم العامة. لكن أصحاب الشأن بدأوا منذ القرن الثالث عشر يتنبهون إلى الجامعة وطلابها، فأخذوا يقدمون للطلاب مساعدات، كأن يهبوهم مكانا للسكن أو الدرس. وأول ما يجدر ذكره ما قام به روبرت دي سوربون الذي أنشأ كلية لطلاب اللاهوت في الحي اللاتيني. وكانت هذه الفعلة بداءة قيام النظام المعروف بنظام الكليات في الجامعة.

وكانت جامعتا أكسفورد وكامبردج في مقدمة الجامعات التي استفادت من نظام الكليات. فقد كانتا حديثتي العهد؛ فالأولى أنشأها طلاب من جامعة باريس، والثانية أوجدها طلاب انشقوا من أكسفورد. وتلقي ملوك إنجلترا ورجال الدين والسياسة فيها هذه الحركة بالخير ووهبوها الأبنية الكثيرة فأخذ أهل كل منها بتنظيم أمورهم كلية مستقلة استقلالا داخليا مع الاتحاد تحت إشراف رئيس عام.

ومما اهتم به أهل الخير، خاصة في إنجلترا، هو تأمين المعاش للمدرسين. فقد كانوا أولا يعتمدون على ما كانوا يتقاضونه من طلابهم، ولم يكن هذا الذي يكفيهم. فلما كفوا مؤونة ذلك، عن طريق حبس الأملاك على الكليات، اطمأنوا إلى معاشاتهم وانصرفوا إلى درسهم يجيدونه.

والروايـة التـي وصلـت إلينـا عـن كـون المعيشـة التـي كان يحياهـا طـلاب الجامعـات في القـرون الوسـطى مليئـة بأخبـار الحيـاة الصاخبـة، غنيـة بالقصـص البوهيميـة. ولعـل هـذا مـا كان منتظـرا مـن ثلاثـة آلاف طالـب في أكسـفورد ونحـو أربعـة آلاف في في باريـس، وغيرهـم في أماكـن أخـرى. فقـد بلـغ عـدد هـذه الجامعـات في أوروبـا في القـرن الخامـس عـشر نحـوا مـن السـبعين. وقـد كان هـؤلاء الطـلاب ينظمـون مقطوعـات شـعرية يصفـون فيهـا أحوالهـم. وقـد وصلنـا الكثـير منهـا. جـاء في إحداهـا قـول طالـب «أنـا الطالـب الكثـير التجـوال! لقـد خلقـت للشـقاء والنَّصَـب. ومـا أكـثر مـا يوصلنـي الفقـر إلى درجـة الجنـون. كـم كنـت أحـب أن اسـتمر في الاغـتراف مـن مناهـل الأدب والمعرفـة، لكـن حاجتـي إلى النقـود أقصتنـي عـن الـدرس. إن ثيـابي الرقيقـة الممزقـة أنسـتني معنـى الـدفء، لكـثرة مـا أحـس بالـبرد. وكـم اضطـررت إلى التغيـب عـن الكنيسـة سـعيا وراء مـا أتقـوت بـه. فهـل لـك أيهـا الـثري العظيـم أن تكفينـي مؤونـة الحاجـة الملـة، وأنـا أبتهـل إلى اللـه أن يكافئـك عـلى مـا تعطينـي».

وكتـب طالـب فرنـسي عـن نفسـه يقـول «لقـد كلفتنـي المقامـرة كل علمـي ... فليـس مدينـة أو قلعـة في فرنسـا لم أخلـف فيهـا كتابـا: فقـد بعـت كتـاب الألفبـاء في غندلـوس، وتركـت ليتانيتـي (أي كتـاب الصلـوات) في بونتـارلي، ومـا تبقـى معـي مـن الكتـب أنفقـت ثمنـه في شرب الخمـر في الطريـق».

عـلى أنـه ليـس كل الـذي وصـل إلينـا مـن هـذا النـوع. فقـد خلـف لنـا القـرن الخامـس عـشر مراسـلات تبودلـت بـين والـتر باسـتون، الطالـب بجامعـة أكسـفورد وأمـه وأخيـه ومعلمـه حـول نفقـات ولـتر وتعليمـه.

أرسلت السيدة باستون ابنها إلى أكسفورد وأوصت كاهن العائلة أن يرافقه ويشرف على أموره، وطلبت إليه أن يحذر ابنها وُلتر من قبول الثوب الكهنوتي لوظيفة عالية قبل أن يبلغ الثالثة والعشرين. وقد كتب ولتر إلى أمه أثناء إقامته في الجامعة رسالة جاء فيها «أمي العزيزة المحترمة ... إني أستغرب لأنك لم تكتبي لي جوابا على خطابي الأخير .. وقد أخبرتك في تلك الرسالة أني سأبعث إليك بتفصيل ما أنفقته وها أنا أفعل الآن .. وصلتني العشرون شلنا التي كانت مع رسول المطران .. أما نفقاتي فقد بلغت ستة جنيهات وخمسة شلنات وخمسة بنسات وثلاثة أرباع البنس وهي تزيد بنحو ثمانية شلنات عن المبلغ الذي كان عندي. وقد اقترضت هذه الشلنات الثانية من المعلم إدمون؛ لذلك أرجو أن ترسلي النقود مع تناول هذه الرسالة، أو مع من يأتي من جهتك».

ويذكر المدرس إدمون في رسالة بعث بها إلى الوالدة بأن ابنها ولتر طالبه في قسم الآداب، وأنه شديد الحرص على التعلم، وأنه من المؤكد بعد ذلك أن ينتقل إلى قسم القانون إذا رغبت هي في ذلك. ويطلب منها أن تعرفه برغبتها. وثمة رسالة أخرى كتبها ولتر إلى أخيه جاء فيها «لقد احتُفِلَ بنيلي الباكلوريا يوم الجمعة في السابع عشر من حزيران، ويوم الإثنين أقمت المأدبة لرصفائي. وقد وعدتني السيدة هاركور ورجل آخر بأن يرسلا لي لحم طيور للمأدبة، لكنهما أخلفا الوعد فاكتفينا باللحم العادي، وقد كان كثيرا فالتهم أصحابي منه ما شاهدوا. وليحفظك الله سالما، آمين».

هـذه صـورة مـن الحيـاة الجامعيـة في العصـور الوسـطى. والجامعـة يرجـع إليهـا الفضـل في تنظيـم الجهـد العلمـي والنشـاط الفكـري في تلـك الأيـام وتهيئـة الجـو للنهضـة العاميـة التـي سـارت بأوروبـا شـوطا بعيـدا في سـبيل التقـدم.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة
مشروع النشر الرقمي